فشل فولكمار

رن جرس الباب ففتحته، وفوجئت بمرأى سينا موريا بثيابها البيضاء تتقدّم نحوي وتعانقني بلهفة.. لم أستطع أن أقول لها بأن عفيف قد حظر علي استقبالها في بيتي.. تملكني الحرج حين قالت: "اشتقت لكم كثيرا!".. أنا لم أحقد عليها أبدا، فهي كامرأة عانت أكثر مني، وما عدت أخشى منافستها لي في زوجي.. درست شخصيتها جيدا، فهي وعفيف متنافرا الهدف، متنافرا البيئة النفسية متنافرا الصفات، وكنت واثقة أنه لو تزوجها لما احتملها أكثر من شهر عسل واحد.. فالتناقضات كثيرة بينهما، والشيء الواحد المشترك أن واحدا منهما لا يتنازل للآخر قيد شعرة..

وقفت كعادتها أمام صورته النصفية وقالت "كم له من بسمة رائعة، هكذا كان يوم عرفته وأحببته.."

ذكرت قوله لي ذات يوم: "الإبتسامة تفتح طريقك الى قلوب الناس الغرباء.. بنك يدخل عليه مئات الألوف ولا يسأل شخص عن آخر.. موظف دائما مشغول ينشرح قلبه حين يرى وجها مبتسما، يفضلك على غيرك من الوجوه القلقة والمستاءة.. دائما كانت أموري ميسّرة تحلّ دون انتظار وتأفف.. مثلا هذا الخباز ماذا اشترينا منه؟ كيلو خبز.. أنظري كيف احتفل بنا.. أنا دائما أعامل الباعة بلطف كبير وهم يردون لي المعاملة بأحسن منها.. الناس عندهم الكثير من الطيبة واللؤماء قلّة"..

جلست على الديوان حيث اعتادت أن تجلس، وسألتني عن الأولاد، قلت لها بأن سلام ويوسف تخرجا كمهندسين، ولكن يوسف عليه أن يخدم العسكرية عامين ويقوم بالخدمة المدنية لخمسة أعوام أخر وكذلك سلام، وهذا القانون الذي أقر حديثا يعيق الشباب المثقفين من الدراسة في الخارج على حسابهم، أوالذهاب الى دول الخليج لكسب المال.. أما نضال فهو في السنة الأخيرة في فرع الفيزياء، وبما أنه متفوق في دراسته فأمامه فرصة السفر الى الخارج في بعثة، ولن يكون حينذاك ملزما الا بالخدمة العسكرية حين يعود.. ورفاه أيضا دخلت كلية الهندسة وكانت تنوي أن تدخل كلية الطب فقصرت علاماتها عن ذلك بعلامة واحدة.. وما كانت بين زمرة المحابين من النظام.. لا بأس في هذا، ولعلهم يؤلفون في المستقبل عملا مشتركا.. أخبريني عن فولكمار..

تنهدت سينا موريا وقالت:

-أجد عناء كبيرا مع فولكمار.. انه يتصرف معي بدون احترام ولا حب، ويقبل على دراسته بنفور ولا مبالاة، وقد علق في سنة التخرج الأخيرة ويفشل عاما بعد عام!..

دخل عفيف بعد أن أحضر حاجة البيت، وفوجئ بوجود سينا، سلم كأنما كان قدومها منتظرا وياسر عرفات محاصرا في طرابلس.. خاب ظنه بالكثيرين: بأصدقائه والفلسطينيين، بالقوميين والشيوعيين والبعثيين، بالمسلمين والمسيحيين، بالدروز والعلويين.. كلهم يرتمون على أقدام أمريكا، كلهم يتذابحون على إرضائها وكلهم يذبحون المقاومة في لبنان. فلماذا يصب جام غضبه على امرأة أجنبية تسعى من أجل السلام في المنطقة، تحت المظلة الأمريكية وبعقلية توراتية؟

انكمش على نفسه خلال سنوات خيبات الأمل يكتب دراسات نظرية، مذكرات تختلط بدراسة المرحلة التي رافقتها، دراسات سياسية وعسكرية، ترجمات لكتب علمية في الفيزياء والرياضيات والنسبية..

سألها عن نفسها فأخرجت صورا من حقيبتها وأرته اياها: كانت قد حصلت على شهادتين: واحدة في الطب النسائي وأخرى في اللاهوت. وأصبحت تدعى دكتور سينا موريا.. هنأها على نجاحها وناولني الصور.. كانت ثلاث صور: في أحداها كانت تقوم بتوليد امرأة، وفي أخرى تحمل الصبي الوليد، وفي الثالثة تستلم شهادة اللاهوت من كلية دينية..

كان الهم الأول لعفيف أن يعرف مدى نجاح فولكمار في الحياة، فلما أطلعته بما كان من فشله أغمض عينيه كأنما دار رأسه ولم يتفوه بكلمة.. كان شاغل حياته أن لا يفشل أبناؤه.. ذكرت حديثا له ابّان دراستهم الجامعية..

-هذا ما أخشاه عليهم.. الفشل.. ان فشل الرجل ينتقل الى ذريته.. الجحيم ليس الاّ هذا.. تعب البيت لا يضيع سدى.. انني أندم من أجل كل لحظة لهو مرت في حياتي.. لماذا غضبت عليهم؟ هذه الحياة التي يحيونها غير طبيعية.. أن يضيعوا أشهر الفرصة في المسابح والسينما والسهر حتى منتصف الليل ويفيقوا عند الظهر، هذه حياة حشاشين، لا أولاد يريدهم الإنسان، وخصوصا من هو في مثل وضعي، أن يراهم في الطليعة.. عندهم مراجع رائعة لو يقرؤوها ولكن أين هم منها؟ قليلا، قليلا ويتفتح ذهنهم وإدراكهم

ويجدون أنفسهم يمتلكون المعرفة.. هذا ما يفعله المبرزون دوما.. انهم لا يتركـــون أبـــدا الكتاب، الكتاب الذي يزودهم بالمعرفة.. لا الروايات!

قال لسينا: لابد أنك قصرت كثيرا في رعاية فولكمار حتى يفشل هذا الفشل الذريع.. أين طموحه الذي حدثتي عنه في أن يصبح قاضيا في محكمة لاهاي؟ أتظنين يهمنـــي أن أعرف عن نجاحاتك الخاصة في الوقت الذي يفشل فيه ابني وابنك.. ألـــم تراقبيـــه؟ ألـــم تحفزيه للإجتهاد، ألم تبصريه بعواقب المتهاونين في دروسهم؟ أتنزل عليه بعد هذا الفشل ثروة من السماء؟

انفجرت فيه سينا موريا وقالت:

–فشله كان بسببك.. لا أدري ماذا قلت له عني! فقد الثقة بي وبأهدافي.. في أعماقه صراع بين عالمك وعالمي، ولا يعرف الى أي منهما ينتمي.. أنت لم تساعده أبدا في شق طريقه في الحياة.. لم يكن قربه أب يحفزه ويكون مثله الأعلى..

–يجب أن يعاود الإمتحان النهائي مهما كان الثمن.. في ســـنه لا يحتـــاج الـــى أب يحفزه، يشق طريقه ولو كان مليئا بالأشواك، يناضل للحصول على مكانته الإجتماعية ولا يبقى عالة على والده أو والدته..

–مللت من نصحي له ولكنه لايبالي..

–لقد طاش أولادي حين دخلوا الجامعة، ولكنني وضعت حدا لطيشهم.. كان يجـــب أن تردعيه عن اللهو ولو بالعصا..

–أولادك لهم بيت مستقر، أما فولكمار، فلا يمكنني أن أسيطر عليه بوضعي.. انـــه يكرهني حتى بت أكره اليوم الذي استبقيته فيها في أحشائي.. هذا إحساسي تجاهه اليوم.. ليس بيننا صداقة أو تفاهم كي يردعه حبي، انني أخشى حتى أن يدمن المخدرات.. افعل شيئا من أجله وأنقذه، وضعه تحت حمايتك، انه شاب لامع يتقن ثلاث لغات.. راسله على الأقل، دعه يشعر أن هناك أسرة تهتم به وتريد صالحه..

قلت لها بأن يوسف راسله فترة من الزمن، ولكنه لم يكن يرد على رسائله فـــانقطع عن مراسلته.

كان من الصعب على عفيف أن يصل جسور الود بينه وبين فولكمار، أو أن يتظاهر بما لا يحسه نحوه في أعماقه. ولقد زاد فشل فولكمار في دراسته من الهوة التـــي تباعـــد

بينهما ولا يسهل ردمها.. فهو لا يعلم عن المؤثرات السلبية والإيجابية التي كوّنت شخصيته.. وهو لا يملك الطبع المرن الذي يسهل رفع الكلفة حتى بينه وبين أولاده الذين رافق نموهم يوما بعد يوم، وأحبهم بكل ما يملك من طاقة روحية..

قال لسينا موريا:

-ماهي الطريقة التي أنقذه بها وأضعه تحت حمايتي؟ آتي به الى دمشق؟ ها هي سلام ويوسف أصبحا مهندسين، ولكن رواتبهما لا تكفي ليتدبرا أمرهما ويستقلا في شؤونهما، فكيف يتدبر فولكمار أمره بلا شهادة ولا وظيفة ولا إمكانية عمل حر.. لو كنت أملك ثروة لربما استطعت أن أفتح له محلا تجاريا كما يفعل آباء الفاشلين في دراستهم ان كانوا أغنياء، ولكن العبء علي ثقيل براتبي المحدود، ولا أستطيع أن أتحمل عبئا إضافيا، ولن يفيد فولكمار الاّ أن يبقى في بلده، وليحمد الله أنه يعيش في بلد متطور يفتح كل الإمكانيات لمن يبذل جهدا ولا يعيش عيش الكسالى..

تركتهما وذهبت الى المطبخ لأعد طعام الغذاء وأنا أذكر ماكان يقوله لي في معرض اللهو الذي كان يحظره على أولادنا أثناء دراستهم:

-أنا لم أصل الى ماوصلت اليه بالهين.. كانوا يقولون عني أنه يقرأ كتاب الرياضيات كما يقرأ غيره رواية أرسين لوبين.. لم يكن هناك من مسألة لا أستطيع حلها.. دائما كنت الأول في الثانوي وفي الجامعة.. أساتذتي في الكلية العسكرية وهم من خيرة الأساتذة الأجانب كانوا يقولون لي:"مسيو بزري، عندك هنا شيء غريب، ذهن صاف كالبلور" هل حصلت على هذا بتمضية أوقاتي في اللهو؟ ومع ذلك أندم على كل لحظة لهو.. العمر ليس طويلا ليضيعه الإنسان هباء.. والعبقرية ثلاثة أرباعها دراسة وجلد وصبر والربع ذهن متفوق..

وأذكر حديثا آخر عن الحافز الداخلي.. قلت له:

-كل الآباء يتمنون أن يروا أبناءهم متفوقين، ولكن التفوق يأتي بحافز داخلي..

-لماذا لا يملكون الحافز الداخلي؟ أي بيت مثل بيتنا يتيح لأبنائه التفوق؟ سنوات طويلة وأنا أدرسهم وأنت كذلك ونعنى بهم ولكنهم صاروا يتململون.. المجتمع والناس والرفاق وأنت شجعتهم على ذلك.. انك لا تقفين الى جانبي ويزداد ولعهم باللهو كل عام، ويتناقص اهتمامهم بالعلم.. هذا ما نحصده اليوم..

-ياعفيف، ماذا يقول الآباء الذين يفشل أبناؤهم؟ يجب أن يذبحوهم على هذا المقياس.. أولادنا ينجحون كل عام بعلامات جيدة فنلومهم لأنهم ليسوا عباقرة ولا هم متفوقون؟

قال غاضبا: وسط، وسط، وسط، أنا لاتعجبني هذه البدايات.. مئات يسبقونهم ويحتلون الأماكن البارزة وهم أقدر منهم على الحياة.. يدفعون بمناكبهم ويصعدون، ان استحقوا هذا أولم يستحقوه.. ليس لأولادنا الاّ أن يتفوقوا بشكل لا يستطيع أحد أن يتجاوزهم.. أين مكانهم ان لم يبرزوا في العلم والمعرفة ولا يجعلوا للّهو الأولية في حياتهم؟..

-أنا لا أفهم أبدا هذا الخوف الدائم من فشلهم.. لماذا يفشلون؟ قد لا يبرزون كالعلماء الكبار ولكنهم يكونون حتما من الناجحين.. اننا لا نجعلهم بجو من الإطمئنان النفسي بهذا السوق القسري الى الكمال.. نجعلهم في رعب دائم من غضبنا واستيائنا..

-رعب! أنا وحش لأنني أريد مصلحتهم؟

-لا أريد أن يتحول حوارنا الى انفعال.. انني أتمنى أيضا لو أراهم متفوقين، ولكنني أجد أننا نسلك طريقا خطرة في معاملتنا اياهم، تجعلنا نقع في ما نخشاه عليهم ونكون نحن السبب، ونعض قلوبنا طوال العمر من أجلهم!

ذكرت فجأة أن هذا الحديث قد جرى بعد زيارة سينا موريا الثانية وكان عفيف متوتر الأعصاب لما سمعه عن فولكمار.. ترى ماهو شعوره الآن وهو يواجه فشل فولكمار؟..

في حديثنا بعد الغذاء تطرقت للحديث عن ياسر عرفات الذي كان حينذاك محاصرا في طرابلس، قالت لعفيف:

-ان قُتل ياسر عرفات فمن تظنه البديل له في قيادة المنظمة؟ أجابها:

-ليس هناك بديل لياسر عرفات، انه يستقطب الشعب الفلسطيني وقضيته العادلة..

-ما رأيك بفاروق قدومي؟

-ليس له مناصرون في المنظمة.. انه عدو ياسر عرفات، وحليف سوريا..

-ما رأيك بياسر عبد ربه؟

–على ما أعلم أنه من جماعة نايف حواتمة وهم منظمة موالية لسوريا وللسوفييت..

لم يكن مرتاحا للحديث معها كان يفكر بفولكمار وقال لي بعد سفرها:

–هذه المرأة لا تأتي لزيارتنا الا ّفي أزمة تمر بها البلاد.. انها مبعوث غير رسمي لجهة تدفع لها، والا ّفأنى لها أن تتحمل نفقات سفرها، ونزولها في أفخم الفنادق؟ لا أحسب أن أمر فولكمار يهمها، ولكن في الواقع أثارت في نفسي قلقا عظيما عليه..

جعلني أكتب رسالة لفولكمار أملاها علي لأكتبها بالإنجليزية، كانت بشكل لبق كأنها تبعد فولكمار عن حياتنا الى حين:

أحب كثيرا أن أستمتع بفرصة رؤياك في بيتنا الذي هو بيتك، بعد أن تنتهي دراستك كما وعدتني، أما في الوقت الحاضر فانني آسف أن أقول بأن ذهني مشغول جدا بقلق لم تستطع آمالي أن تهدئه. فالعائق هو لظروف خارج ارادتي، بالإضافة الى صعوبات مادية ملأت حياتي بالمرارة.

انني أعتمد على فهمك اللماح بالطلب منك أن تؤجل زيارتك الآن آملا أن أجد فرصة أكثر مناسبة لي ولك في ايجاد بديل أفضل.

آمل أن لا تكون معارضا لوضع مستقل، موقف رجل يبحث في كل خطواته عن الحقيقة، ويكون له قلب كبير متسامح مع أخطاء الآخرين..

* * *